

الصلاة

المحاضرة ١: كَيْفِيَّةُ الصَّلَاةِ

أ.ر. سي. سرول

كُلُّ مَنْ اسْتَمَعَ يَوْمًا إِلَى عِظَةٍ لِي فِي أَيِّ فِتْرَةٍ مِنَ الْوَقْتِ، يُدْرِكُ سَرِيعًا أَيَّ أَحِبُّ أَسْفَارَ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ. لِأَنَّنا نَجِدُ فِي صَفَحَاتِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ قِصَصًا أَعْتَبَرُهَا فَاتِنَةً وَمُؤَثِّرَةً وَمُثِيرَةً لِلْمَشَاعِرِ، لِأَنَّهَا تَتَنَاوَلُ أَشْخَاصًا حَقِيقِيَّيْنَ يُوَاجِهُونَ صِرَاعَاتٍ حَقِيقِيَّةً فِي الْحَيَاةِ فِيمَا يَسْعَوْنَ إِلَى تَطْوِيرِ عِلَاقَتِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ بِاللَّهِ. وَبِرَأْيِي، إِحْدَى الْفِصَصِ الْأَكْثَرِ إِثَارَةً لِلْمَشَاعِرِ الَّتِي نَجِدُهَا فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ هِيَ قِصَّةُ حَنَّةَ، أُمِّ صَمُوئِيلَ.

نَذْكُرُ أَنَّنَا فِي الْأَصْحَاحِ ٢ مِنْ سَفَرِ صَمُوئِيلَ الْأَوَّلِ نَفَرْنَا نَشِيدَ حَنَّةَ، الَّذِي يُشْبِهُ كَثِيرًا نَشِيدَ مَرِيمَ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ. تُوَجَدُ أَوْجُهُ شَبَهُ كَثِيرَةً بَيْنَ هَاتَيْنِ الْمَرَاتِينِ. لَكِنَّ نَشِيدَ الْإِحْتِفَالِ وَالْفَرَحِ الَّذِي أَنْشَدَتْهُ حَنَّةُ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، جَاءَ رَدًّا عَلَى اسْتِجَابَةِ اللَّهِ لِصَلَاتِهَا.

مَا سَنَنْتَرِقُ إِلَيْهِ فِي الْمُحَاضَرَاتِ الْقَلِيلَةِ الْمُقْبِلَةِ هُوَ نَهْجٌ مَسِيحِيٌّ لِلصَّلَاةِ. أُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ مِنْ وَجْهَةٍ نَظَرٍ عَمَلِيَّةٍ، لِأَنَّي أَعْمِي جَدِيدًا أَنَّ الْكَثِيرَ مِنَ النَّاسِ فِي الْعَالَمِ الْمَسِيحِيِّ يُصَارِعُونَ فِي مَسْأَلَةِ الصَّلَاةِ بِرُمَّتِهَا. كَمَا أَنَّ النَّاسَ مُتَقَلِّبُونَ بِذَنْبٍ كَبِيرٍ لِأَنَّهُمْ يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مَاهِرِينَ وَثَابِتِينَ عَلَى مَبْدَأٍ فِي مَسِيرَةِ صَلَاتِهِمْ، حَتَّى إِنَّ قِرَاءَةَ سَرِيعَةً لِصَفَحَاتِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ تُبَيِّنُ أَنَّ الْقِدِّيسِينَ قَدِيمًا كَانُوا أَنَا سَا يَتَمَيِّزُونَ بِمَسِيرَةِ صَلَاةٍ ثَابِتَةٍ.

إِذَا، مَا أُرِيدُ الْعَمَلَ عَلَيْهِ فِي السَّاعَاتِ الْمُقْبِلَةِ هُوَ السُّؤَالُ الْآتِي: كَيْفَ يُمَكِّنُنَا تَعَلُّمُ كَيْفِيَّةِ الصَّلَاةِ مِثْلَ الْقِدِّيسِينَ قَدِيمًا فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ؟ أُرِيدُ أَنْ أَبْدَأَ بِالْقَاءِ نَظَرَةٍ وَجِدَّةٍ عَلَى هَذِهِ الْوَاقِعَةِ الَّتِي تَمَّ تَدْوِينُهَا لَنَا فِي سَفَرِ صَمُوئِيلَ الْأَوَّلِ، وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِحَنَّةَ. كَانَتْ حَنَّةُ مُتَزَوِّجَةً وَكَانَتْ تَتَوَقَّى إِلَى إِنجَابِ الْأَطْفَالِ. لَكِنَّا نَعْلَمُ فِي الْأَصْحَاحِ ١ أَنْ:

الرَّبُّ كَانَ قَدْ أَغْلَقَ رَحْمَهَا. وَكَانَتْ ضَرَّتْهَا تُعْظِمُهَا أَيْضًا غَيْظًا لِأَجْلِ الْمُرَاعَمَةِ، لِأَنَّ الرَّبَّ أَغْلَقَ رَحْمَهَا. وَهَكَذَا صَارَ سَنَةٌ بَعْدَ سَنَةٍ، كُلَّمَا صَعِدَتْ إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ، هَكَذَا كَانَتْ تُعْظِمُهَا. فَبَكَتْ وَلَمْ تَأْكُلْ. فَقَالَ لَهَا أَلْقَانَةُ رَجُلُهَا: "يَا حَنَّةُ، لِمَاذَا تَبْكِينَ؟ وَلِمَاذَا لَا تَأْكُلِينَ؟ وَلِمَاذَا يَكْتَتِبُ قَلْبُكَ؟ أَمَا أَنَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ عَشْرَةِ بَنِينَ؟". فَقَامَتْ حَنَّةُ بَعْدَمَا أَكَلُوا فِي شَيْلُوهُ وَبَعْدَمَا شَرِبُوا، وَعَالِي الْكَاهِنِ جَالِسٌ عَلَى الْكُرْسِيِّ عِنْدَ قَائِمَةِ هَيْكَلِ الرَّبِّ، وَهِيَ مُرَّةُ النَّفْسِ. فَصَلَّتْ إِلَى الرَّبِّ، وَبَكَتْ بُكَاءً.

فَهَمَّتُمُ السَّيْنَارِيُو هُنَا. كَانَتْ حَنَّةُ تَعِيسَةً وَلَمْ يَتَحَسَّنْ وَضْعُهَا عَلَى مَرِّ السِّنِينَ. وَكَانَتْ ضَرَّتْهَا تَسْحَرُ مِنْ حَيَاتِهَا لِدَرَجَةٍ أَنَّهَا أُصِيبَتْ بِالْمَرَارَةِ. فَرَأَاهَا زَوْجُهَا وَقَلِقَ لِشِدَّةِ كَاتِبَتِهَا، وَسَأَلَهَا: "مَا حَظُّكَ؟ لَا بَأْسَ إِنَّ لَمْ يَكُنْ لَدَيْنَا أَيُّ أَوْلَادٍ.

أَلَسْتُ أُسَاوِي شَيْئًا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكَ؟ أَمْ لَنْ أَكُونَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكَ بِقَدْرِ عَشْرَةِ أَبْنَاءٍ". لَكِنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ كَافِيًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى حَتَّةَ. فَهِيَ أَرَادَتْ أَنْ تُصَبِّحَ أُمَّا. فَكَلَّمَتْ هَيْكَلَ حَيْثُ يَخْدُمُ عَالِي الشَّعْبِ، وَنَعَلِمَ أَنَّهَا صَلَّتْ بِرُوحِ مُعَذِّبَةٍ.

يَقُولُ لَنَا الْعَهْدُ الْجَدِيدُ إِنَّ "طَلِبَةَ الْبَارِّ تَقْتَدِرُ كَثِيرًا فِي فِعْلِهَا". لَكِنَّ كَلِمَةَ "بَارٌّ" لَا تَقْتَصِرُ عَلَى جِنْسٍ مُعَيَّنٍ مِنَ النَّاسِ. أَيْ أَنْ بِإِمْكَانِنَا تَرْجَمَةَ ذَلِكَ بِالْقَوْلِ إِنَّ "طَلِبَةَ الْإِنْسَانِ" الْبَارِّ تَقْتَدِرُ كَثِيرًا فِي فِعْلِهَا". وَلَيْسَتْ صَلَاةُ الذُّكُورِ وَحَدَهُمْ هِيَ الْفَعَالَةُ. لَكِنَّ لَا حِظُوا أَنَّهُ حِينَ قِيلَ لَنَا ذَلِكَ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ، إِنَّ أَحَدَ مَفَاتِيحِ الصَّلَاةِ الْفَعَالَةِ هُوَ الصَّلَاةُ الْحَارَّةُ. يَجِبُ أَلَّا تَكُونَ مُتَقَطَّعَةً، وَيَجِبُ أَلَّا تَكُونَ عَرَضِيَّةً. لَكِنَّ حِينَ يَتَوَقَّعُ النَّاسُ أَنْ يَنَالُوا اسْتِجَابَةً لِصَلَوَاتِهِمْ، يَجِبُ أَنْ يَحْدُثَ ذَلِكَ فِي إِطَارِ الصَّلَاةِ الْجَدِيدَةِ.

إِنْ دَخَلَ اللَّهُ إِلَى مَنْزِلِكَ بَعْدَ ظَهْرِ الْيَوْمِ وَأَرَدْتَ أَنْ تُكَلِّمَهُ، أَوْ أَنْ تَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ وَأَنْ تَلْتَمِسَ مِنْهُ عَمَلًا مَا، أَوْ أَنْ تُمَجِّدَهُ عَلَى عَظَمَتِهِ أَوْ أَنْ تَعْتَرِفَ بِخَطَايَاكَ، فَمَاذَا سَتَكُونُ حَالَهُ نَفْسِكَ فِي تِلْكَ الْمُحَادَثَةِ؟ مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّهَا لَنْ تَكُونَ مُتَبَلِّدَةً وَعَرَضِيَّةً. حِينَ كَانَتْ شَخْصِيَّاتُ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ تَدْخُلُ فِي أَحَادِيثَ مَعَ اللَّهِ، مِثْلَ يَعْقُوبَ، كَانُوا يَتَصَارَعُونَ مَعَ اللَّهِ، كَانُوا يَسْتَعْرِقُونَ اللَّيْلَ كُلَّهُ، كَانُوا مُتَابِرِينَ وَمُتَحَمِّسِينَ لِأَنَّ هُمُومَهُمُ الَّتِي قَدَّمُوهَا إِلَى اللَّهِ كَانَتْ نَابِعَةً مِنْ أَعْمَاقِ حُزْنِهِمْ، أَيْ مِنْ كَرَبٍ وَضَعُوهُمْ، فَصَرَخُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ أَعْمَاقِ قُلُوبِهِمْ. هَذَا مَا حَدَّثَ لِحَتَّةَ.

وَهِيَ مُرَّةُ النَّفْسِ. فَصَلَّتْ إِلَى الرَّبِّ، وَبَكَتْ بُكَاءً، وَنَدَرَتْ نَدْرًا وَقَالَتْ: "يَا رَبَّ الْجُنُودِ، إِنْ نَظَرْتَ نَظْرًا إِلَى مَدَلَّةِ أَمْتِكَ، وَذَكَرْتَنِي وَلَمْ تُنَسِّ أَمْتِكَ بَلْ أَعْطَيْتَ أَمْتِكَ زَرْعَ بَشَرٍ، فَإِنِّي أُعْطِيهِ لِلرَّبِّ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِهِ، وَلَا يَعْلُو رَأْسُهُ مُوسَى". وَكَانَ إِذْ أَكْثَرَتِ الصَّلَاةُ أَمَامَ الرَّبِّ وَعَالِي يُلَاحِظُ فَاهَا. فَإِنَّ حَتَّةَ كَانَتْ تَتَكَلَّمُ فِي قَلْبِهَا، وَشَفَتَاهَا فَقَطَّ تَتَحَرَّكَانِ، وَصَوْتُهَا لَمْ يُسْمَعْ، أَنَّ عَالِي يُلَاحِظُ فَاهَا. فَقَالَ لَهَا عَالِي: "حَتَّى مَتَى تَسْكُرِينَ؟ انزِعِي حَمْرِيكَ عَنكَ". فَأَجَابَتْ حَتَّةَ وَقَالَتْ: "لَا يَا سَيِّدِي. إِنِّي امْرَأَةٌ حَزِينَةٌ الرُّوحِ وَلَمْ أَشْرَبْ حَمْرًا وَلَا مُسْكِرًا، بَلْ أَسْكُبُ نَفْسِي أَمَامَ الرَّبِّ. لَا تَحْسِبْ أَمْتِكَ ابْنَةً بَلِيَّعَالٍ، لِأَنِّي مِنْ كَثْرَةِ كُرْبَتِي وَعَظِيمِي قَدْ تَكَلَّمْتُ إِلَى الْآنِ". فَأَجَابَ عَالِي وَقَالَ: "أَذْهَبِي بِسَلَامٍ، وَإِلَهُ إِسْرَائِيلَ يُعْطِيكَ سُؤْلَكَ الَّذِي سَأَلْتِهِ مِنْ لَدُنْهُ".

وَنَالَتْ اسْتِجَابَةً لِصَلَاتِهَا. وَهِيَ صَلَاةٌ لَمْ تُعْلِنَهَا بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ. إِنَّهَا صَلَاةٌ رَفَعَتْهَا بِصَمْتٍ. حَرَكَتْ شَفَتَيْهَا أَثْنَاءَ الصَّلَاةِ لَكِنَّهَا كَانَتْ تُخَاطِبُ اللَّهَ الْقَادِرَ أَنْ يَسْمَعَ صُرَاخَ نَفْسِهَا مِنْ قَلْبِهَا.

الليلة الماضية تحدثت مع امرأة متزوجة من خادم، قالت: "خدمة زوجي هي خدمة الكلمة لكن خدمتي هي خدمة الصلاة". وقالت إنها تُمضي أيامها في الصلاة، وإنها تجد نفسها تتكلم بصوت عالٍ حتى بينما تجول في ممرات السوبر ماركت. وهي تستمر في رفع صلوات لله وهي تُصلي من أجل شعب الكنيسة. أحيانًا ينظر إليها الناس ويظنون أنها مجنونة، لكنها ليست مجنونة. لقد اكتشفت قوة الصلاة.

يجب أن أكرس وقتًا الآن لأظهر التباين بين صلاة حنة ونتيجتها. والمرّة الأولى التي أذكر أنني رفعت فيها صلاة حارة في حياتي، وصليت بنفس حزينه ومهمومة، هذه الصلوات التي صليتُها في هذه المناسبة لم تكن صلوات مؤمن. هذه الصلاة التي أفدّر أن أتذكرها صليتُها في كنيسة، جاثيًا على ركبتي، بحرارة شديدة حين لم أكن مؤمنًا بالمسيح. كان ذلك بمناسبة ولادة الطفل البكر لأختي.

أنا كنت في المدرسة الثانوية وقصدت أختي المستشفى لثنيج طفلها، وتم استدعائنا إلى المستشفى في وقت متأخر من الليل لأنها بعد أن أنجبت طفلها، بدأت تنرف. ولم يتمكن الأطباء من إيقاف النزيف. فكانت حياتها في خطر شديد. ولما وصلنا إلى المستشفى، لم يُسمح لي بالصعود إلى غرفتها. كان الوضع طارئًا جدًا لدرجة أنه لم يُسمح لأي من أفراد العائلة برؤيتها في ذلك الوقت. وأذكر أنني كنت في ردهة ذلك المستشفى، وكانت الساعة الثانية فجراً. لم يكن يوجد زوار في المكان وكان الجو مظلمًا وهادئًا تمامًا. كنت أعلم أنها في الطابق السادس، وكنت أعرف جيدًا أن مشرحة المستشفى موجودة في الطابق السفلي. فذهبت إلى الكنيسة وصليت أن تعيش أختي. وبعد أن انتهيت من الصلاة، وقفت أمام ذلك المصعد، ورحت أراقب الأرقام وهي تتغير بحسب الطوابق المختلفة. ثم رأيت أبواب المصعد تفتح على مستوى الردهة ورأيت جثة مغطاة بملائة، ثم رأيت الأبواب تغلق وتم النزول إلى المشرحة، فارتعب قلبي، ورحت أراقب ما يجري. فرأيت المصعد يتوقف عند الطابق السادس، ثم رأيت السهم يتجه نزولًا متجاوزًا الردهة ووصولًا إلى الطابق السفلي. فحُفَّت مجددًا أن يكون جثمان أختي في الداخل. فرجعت إلى الكنيسة وبكيت. كنت هناك وحدي، فجنوت على ركبتي ورحت أتوسل إلى الله قائلاً: "يا رب أرجوك، لا تأخذ حياة أختي". ثم تمكن الأطباء من إيقاف النزيف، فنجت.

لا أذكر أنني رجعت وجنوت على ركبتي قائلاً: "شكرًا". إن كان هناك وجود لما يُعرف بديانة المازق أو الصلاة وسط الأزمة فهذا ما اختبرته. وقد بين الأمر فعلًا أنني كنت أعلم أنه يوجد إله، حتى قبل أن أسلم حياتي للمسيح أو أن أصبح مؤمنًا. ولم تكن الصلاة جزءًا من حياتي، لكن حين واجهت مسألة حياة وموت رجعت إلى أمر كان يجب أن يكون طبيعيًا وعاديًا وممارسة يومية في حياتي.

وَالصَّلَاةُ التَّالِيَةُ الَّتِي أَذْكَرُ أَنِّي صَلَّيْتُهَا جَائِئًا عَلَى رُكْبَتَيْ كَانَتْ بَعْدَ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ، حِينَ صَلَّيْتُ بِالْقُرْبِ مِنْ سَرِيرِي طَالِبًا مِنَ اللَّهِ أَنْ يَغْفِرَ خَطَايَايَ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي نِلْتُ فِيهَا الْخَلَاصَ. أَذْكَرُ أَنِّي مِنْذُ بَدَايَةِ حَيَاتِي الْمَسِيحِيَّةِ كُنْتُ أَحْبُّ الْأَوْقَاتِ الَّتِي أَمْضِيهَا فِي شَرِكَةِ شَخْصِيَّةٍ مَعَ اللَّهِ. كَانَتْ تُوجَدُ عَلاَقَةٌ حَمِيمَةٌ فِي الْأَمْرِ، وَكَانَتْ لِي اخْتِيارَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي حَيَاتِي عَن تَمْضِيَةِ ثَمَانِي سَاعَاتٍ مُتتَالِيَةٍ فِي الصَّلَاةِ. لَا تُسَيِّئُوا فَهَمِي، أَنَا لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ كُلَّ يَوْمٍ. لَكِنْ كَانَتْ لِي اخْتِيارَاتٌ كَثِيرَةٌ مِمَّاثِلَةٌ، وَلَا مِثِيلَ لِلْأَمْرِ.

لَكِنِّي تَعَلَّمْتُ مَفْهُومَ الصَّلَاةِ الطَّوِيلَةِ وَالْحَارَّةِ هَذَا حِينَ كُنْتُ أَسْتَاذًا فِي الْكَلِّيَّةِ فِي السَّنَةِ الْأُولَى مِنْ مَسِيرَةِ التَّدْرِيسِ. عَلَّمْتُ فِي الْكَلِّيَّةِ نَفْسَهَا الَّتِي كُنْتُ قَدْ تَخَرَّجْتُ مِنْهَا، وَهِيَ كَانَتْ تَقَعُ فِي بَلَدَةٍ صَغِيرَةٍ. وَكَانَتْ كَلِّيَّةً مَشِيخِيَّةً قَدِيمَةً. وَكَانَ جُزْءٌ مِنَ الْمَدِينَةِ يَتَضَمَّنُ مَسَاكِينَ لِلْمُرْسَلِينَ الْمُتَقَاعِدِينَ، وَكَانَ يُوجَدُ رَجُلٌ فِي آخِرِ الثَّمَانِينِيَّاتِ مِنَ الْعُمْرِ، كَانَ مُرْسَلًا طَبِيًّا مُتَقَاعِدًا وَهُوَ يُدْعَى الدُّكْتُورَ جَاميسُون. وَكَانَ الدُّكْتُورُ جَاميسُونُ يُعْتَبَرُ لَدَى جِيلِنَا الْأَصْغَرَ قَدِيسًا مَسِيحِيًّا حَقِيقِيًّا صَادِقًا. وَهُوَ كَانَ قَدْ مَارَسَ الطِّبَّ فِي حَقْلِ الْإِرْسَالِيَّةِ طَوَالَ عُقُودٍ، لَكِنَّهُ بَلَغَ الْآنَ مَرَحَلَةً مِنْ حَيَاتِهِ حَيْثُ أَصْبَحَ يُعَانِي مِنْ بَعْضِ الْأَمْرَاضِ، وَقَدْ كَانَ وَاهِنًا. لَمْ يَعُدْ بِإِمْكَانِهِ مُمَارَسَةَ الطِّبِّ. وَلَمْ يَكُنْ أَبَدًا ضِمْنَ مُحَظِّطِهِ أَوْ فِي نَيْتِهِ أَنْ يَتَقَاعَدَ، لَكِنْ لَمْ يَعُدْ بِإِمْكَانِهِ الْعَمَلِ. إِذَا، مَا فَعَلَهُ فِي تِلْكَ الْمَرَحَلَةِ مِنْ حَيَاتِهِ هُوَ أَنَّهُ كَرَسَ نَفْسَهُ لِذِعْوَةٍ جَدِيدَةٍ. وَكَانَتْ مِهْنَتُهُ الثَّانِيَّةُ هِيَ مِهْنَةُ الْمُتَشَفِّعِ بِالصَّلَاةِ. قَالَ: "لَا يَزَالُ بِإِمْكَانِي الْعَمَلُ ثَمَانِي سَاعَاتٍ فِي الْيَوْمِ". وَمَا كَانَ الدُّكْتُورُ جَاميسُونُ يَفْعَلُهُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، ثَمَانِي سَاعَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، هُوَ الْجُنُودُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ. إِنَّهُ يُشْكَلُ مَا نُسَمِّيهِ مُحَارِبًا فِي الصَّلَاةِ.

وَالْآنَ دَعَوْنِي أَقُولُ لَكُمْ أَمْرًا. حِينَ كَانَتْ لَدَيْنَا مُحَاوِفٌ حِينَ كُنْتُ أَقِيمُ فِي تِلْكَ الْبَلَدَةِ، وَأَرَدْنَا أَنْ يُصَلِّيَ النَّاسُ لِأَجْلِنَا، بِرَأْيِكُمْ مِنَ الَّذِي أَرَدْتُ مِنْهُ أَنْ يُصَلِّيَ لِأَجْلِي؟ أَصَبْتُمْ! كُنْتُ أَتَوَجَّهُ مُبَاشَرَةً إِلَى مَنْزِلِ الدُّكْتُورِ جَاميسُونُ وَأَقْرَعُ الْبَابَ وَأَقُولُ: "أَيُّهَا الدُّكْتُورُ جَاميسُونُ، هَلَا تُصَلِّيَ لِأَجْلِي؟" "نَعَمْ بِالطَّبَعِ". وَعَلِمْتُ حِينَ قَالَ إِنَّهُ سَيُصَلِّيَ لِأَجْلِي أَنَّهُ سَيَفِي بِوَعْدِهِ.

أَفْكَرْتُ فِي يَعْقُوبَ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ، كَاتِبِ رِسَالَةِ يَعْقُوبَ الَّذِي، وَبِحَسَبِ تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ الْأُولَى وَأَفْضَلِ الْمَصَادِرِ الَّتِي وَصَلْتُنَا مِنَ الْعُصُورِ الْقَدِيمَةِ، كَانَ فِي الْوَاقِعِ أَخَا رَبَّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ. وَكَانَ يُعْرَفُ فِي الْكَنِيسَةِ الْأُولَى بِاسْمَيْنِ أَوْ لَقَبَيْنِ. وَقَدْ كَانَ أَحَدَ أَلْقَابِهِ يَعْقُوبَ هُوَ الْبَارُّ، لِأَنَّهُ أُشْتَهَرَ بِبُلُوغِهِ مُسْتَوَى فَائِقًا لِلطَّبِيعَةِ مِنَ الْبَرِّ. وَهَذَا الرَّجُلُ لَمْ يُؤْمِنْ بِأَخِيهِ إِلَّا بَعْدَ قِيَامَةِ هَذَا الْأَخِيرِ مِنَ الْمَوْتِ. وَتَحَوَّلَ مِنْ مُشْكَكٍ إِلَى مُؤْمِنٍ، وَحَمَلَ لَقَبَ "يَعْقُوبَ الْبَارَّ". لَكِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّ لَقَبَهُ الْأَخْرَ كَانَ أَكْثَرَ وَضُوحًا. لَقَبُهُ الْأَخْرُ بِحَسَبِ الْعُصُورِ الْقَدِيمَةِ كَانَ "صَاحِبَ رُكْبَتَيْ الْجَمَلِ الْعُجُوزِ". صَاحِبَ رُكْبَتَيْ الْجَمَلِ الْعُجُوزِ.

مُوَحَّرًا، أَمْضَيْتُ بَعْضَ الْوَقْتِ مَعَ أَحْفَادِي فِي فِيرْجِينِيَا. كُنَّا جَالِسِينَ حَوْلَ طَاوِلَةٍ وَكَانَ الْأَحْفَادُ يَلْعَبُونَ، وَنَظَرُوا إِلَيَّ وَكَانُوا يَبْدُونَني "جَدِّي". قَالُوا "جَدِّي، لِمَاذَا يَبْدُو وَجْهَكَ كَالْجَلْدِ؟" هَذَا مَا خَرَجَ مِنْ أَفْوَاهِ الْأَطْفَالِ. مُعْظَمُ الْأَشْخَاصِ لَا يَأْتُونَ إِلَيَّ قَائِلِينَ: "لِمَاذَا يَبْدُو وَجْهَكَ كَالْجَلْدِ؟" لَكِنَّ لَا بَدَّ مِنْ أَنَّهُمْ يُفَكِّرُونَ فِي الْأَمْرِ، إِنْ كَانَ هَذَا مَا وَجَدَهُ أَحْفَادِي. فَقُلْتُ: "لَسْتُ أَدْرِي، رُبَّمَا لِأَنِّي مِنْهُكَ قَلِيلًا. تَذَكَّرُوا أَنَّ فِيمِي يَبْلُغُ الْخَامِسَةَ وَالتِّسْعِينَ مِنْ حَيْثُ التَّحَدُّثُ كَثِيرًا". إِذَا، أَنَا أَظُنُّ أَنَّ لَوْنَ بَشْرَتِي قَدْ شَحَبَ عَلَى مَرِّ السِّنِينَ. لَمْ يَتَّهَمْنِي أَحَدٌ أَبَدًا بِأَنَّ لَدَيَّ رُكْبَتَيْنِ مِنْ جِلْدِي، لَكِنَّ عِبَارَةَ "صَاحِبِ رُكْبَتَيْ الْجَمَلِ الْعُجُوزِ" تَمَّ نَسْبُهَا إِلَى يَعْقُوبَ، أَخِي يَسُوعَ، لِأَنَّ كَانَ لَدَيْهِ نَسِيْجٌ عَلَى رُكْبَتَيْهِ جَرَاءَ تَمْضِيَّتِهِ وَقَتًا طَوِيلًا فِي الصَّلَاةِ. لَيْسَ الْكُلُّ مَدْعُوًّا لِخِدْمَةِ الصَّلَاةِ كَمَا الدُّكْتُورِ جَامِبِسُونُ، وَلَا يُصَلِّي الْكُلُّ بِحَرَارَةٍ وَمُثَابَرَةٍ كَمَا حَنَّةٌ، لَكِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا قَادِرٌ أَنْ يَنْمُوَ فِي مَسِيرَةِ صَلَاتِهِ.

أَحَدُ الْأُمُورِ الَّتِي أَجِدُهَا مُحْزِنَةً قَلِيلًا هُوَ أَنَّنَا نَمِيلُ إِلَى اعْتِبَارِ الصَّلَاةِ وَاجِبًا مُقَدَّسًا، مُجَرَّدَ وَاجِبٍ. أَسْرَعُ طَرِيقَةٍ أَعْرَفُهَا لِجَعْلِ النَّاسِ يَمْتَقِنُونَ أَمْرًا مَا تَقْضِي بَعْرُضِهِ أَمَامَهُمْ كَفَرِيضَةٍ. عِنْدَيْدِي، يُصْبِحُ الْأَمْرُ عِبْتًا، وَيَأْمَكِنَانَا جَعْلُ النَّاسِ يَشْعُرُونَ بِالذَّنْبِ. لَكِنَّ فِي الْحَقِيقَةِ، الصَّلَاةُ هِيَ وَاجِبٌ وَلَا يُمَكِّنُنِي الْإِنْكَارُ أَنَّهَا وَاجِبٌ. لَقَدْ دَعَانَا الْمَسِيحُ وَالرُّسُلُ وَأَمَرُونَا بِالْمُثَابَرَةِ عَلَى الصَّلَاةِ. هَذَا الْأَمْرُ مَوْضُوعٌ أَمَامَنَا، لَكِنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ وَاجِبٌ. إِذَا، لَنْ أَمْضِي الْوَقْتِ فِي الْحَدِيثِ عَنِ وَاجِبِ الصَّلَاةِ لَدَيْنَا.

مَا أُرِيدُ أَنْ نَرَاهُ هُوَ الْفُرْصَةُ الْمَوْضُوعَةُ أَمَامَنَا. كَمْ جَمِيلٌ لِحَيَاتِنَا أَنْ تَتَسَّيَ لَنَا فُرْصَةُ الْمُثُولِ أَمَامَ مُحَضَّرِ اللَّهِ نَفْسِهِ وَالتَّكَلُّمِ مَعَهُ، فَتَمَكَّنْ مِنَ التَّكَلُّمِ مَعَهُ مِنْ أَعْمَقِ مَخَافِنَا وَقُلُوبِنَا. وَلَا يَجْدُرُ بِنَا أَنْ نَعْتَبِرَ أَنْفُسَنَا فَاشِلِينَ لِمُجَرَّدِ أَنَّنَا لَمْ نَنْجَحْ فِي الْمُثَابَرَةِ عَلَى الصَّلَاةِ. وَأَظُنُّ أَنَّ السَّبَبَ الْأَسَاسِيَّ لِعَدَمِ حُدُوثِ ذَلِكَ فِي حَالَاتٍ عِدَّةٍ، لَيْسَ عَدَمُ تَوْفِقِنَا إِلَى الشَّرِكَةِ مَعَ اللَّهِ أَوْ الْإِقْتِرَابِ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ افْتِقَارُنَا إِلَى الْوَقْتِ الْكَافِي. لَيْسَتْ هَذِهِ مُشْكِلَتُنَا. لَيْسَ لِأَنَّ نَفْتَقِرُ إِلَى الْإِنْضِبَاطِ. جَمِيعُ تِلْكَ الْأُمُورِ قَدْ تَكُونُ صَحِيحَةً لَكِنَّا لَيْسَتْ الْأَسْبَابُ الرَّئِيسِيَّةُ لِقُصُورِنَا عَمَّا يُمَكِّنُ لَنَا أَنْ نُنْجِزَهُ أَوْ أَنْ نَنْعَمَ بِهِ فِي الصَّلَاةِ.

أَظُنُّ أَنَّ السَّبَبَ الرَّئِيسِيَّ هُوَ أَنَّنَا لَا نَعْرِفُ الطَّرِيقَةَ. نَحْنُ لَا نَعْرِفُ كَيْفَ نُصَلِّي. هَذَا لَا يَفَاجِئُنِي، فَمَا سَرَاهُ لِأَحَقًّا حِينَ نَتَأَمَّلُ فِي الصَّلَاةِ الرَّبَّانِيَّةِ هُوَ أَنَّ الْأَمْرَ الْوَحِيدَ الَّذِي طَلَبَهُ تَلَامِيذُ يَسُوعَ مِنْ مُعَلِّمِهِمْ كَمَا دَرَسْنَا فِي الْإِضَافِيَّةِ وَكَوَالِجِ مَنَزِلِي إِضَافِيٍّ، أَعْنِي أَنَّهُ لَا يُوجَدُ تَلَامِيذٌ كَثِيرُونَ يَقْصِدُونَ أَسْتَاذَهُمْ قَائِلِينَ: "شُكْرًا عَلَى كُلِّ مَا عَلَّمْتَنِي إِيَّاهُ حَتَّى الْآنَ، لَكِنَّ مَا رَأَيْتُ فِي أَنْ تُعَلِّمَنِي أَكْثَرَ؟" مَا هِيَ الْمَرَّةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي نَرَاهُمْ فِيهَا يَأْتُونَ إِلَى يَسُوعَ طَلَبًا لِدِرَاسَةٍ عَلَيَّ؟ "يَا رَبُّ، عَلَّمْنَا أَنْ نُصَلِّي". أَنَا مُفْتَنٌ بِوُجُودِ سَبَبَيْنِ لَطَلِبَهُمْ هَذَا الْأَمْرَ. السَّبَبُ الْأَوَّلُ هُوَ أَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا الطَّرِيقَةَ. وَالسَّبَبُ الثَّانِي هُوَ أَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ يَسُوعَ يَعْرِفُ الطَّرِيقَةَ. لَقَدْ رَاقَبُوهُ. رَأَوْهُ يَنْصَرِفُ بِمُفْرَدِهِ مِنْ دُونِ أَنْ يَفُومَ بِعَرَضٍ مُتَبَاهٍ بِتَفْوَاهِهِ.

لَا حَظُّوا أَنَّ يَسُوعَ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ الْفَرِيسِيِّينَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِقِيَمِهِمُ الرُّوحِيَّةَ أَمَامَ الْجَمِيعِ مُصَلِّينَ فِي كُلِّ فُرْصَةٍ، مُتَّبَاهِينَ بِتَقْوَاهُمْ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُجَاوِلُونَ أَنْ يَكْسِبُوا اسْتِحْسَانَ النَّاسِ. لَمْ يَفْعَلْ يَسُوعُ الْأَمْرَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ. كَانَ يَحْتَلِي بِنَفْسِهِ بِهَدْوٍ وَحَمِيمَةٍ، وَيَسْكُبُ نَفْسَهُ أَمَامَ الْآبِ. فِي الْوَاقِعِ، حَتَّى قَبْلَ أَنْ يَخْتَارَ يَسُوعُ تَلَامِيذَهُ، تَذَكَّرُونَ مَاذَا يَقُولُ لَنَا الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ فِي إِنجِيلِ لُوقَا؟ قَضَى اللَّيْلَةَ كُلَّهَا فِي الصَّلَاةِ قَبْلَ أَنْ يَخْتَارَهُمْ. مَتَى كَانَتْ آخِرَ مَرَّةٍ قَضَيْتَ فِيهَا اللَّيْلَ كُلَّهُ فِي الصَّلَاةِ قَبْلَ أَنْ تَتَّخِذَ قَرَارًا مُهِمًّا فِي حَيَاتِكَ؟ نَحْنُ لَا نَفْعَلُ ذَلِكَ. لَكِنَّ التَّلَامِيذَ قَالُوا "يُوجَدُ ارْتِبَاطٌ هُنَا بَيْنَ قُوَّةِ يَسُوعَ الرُّوحِيَّةِ وَطَرِيقَةِ ارْتِبَاطِهِ بِالْآبِ فِي الصَّلَاةِ". فَقَالُوا لَهُ "رَجَاءً عَلَّمْنَا أَنْ نُصَلِّيَ". هَذَا مَا أَرْجُو أَنْ نَتِمَكَّنَ مِنْ تَحْقِيقِهِ إِلَى حَدِّ مَا فِي هَذِهِ السِّلْسِلَةِ.

الدكتور آر. سي. سبرول هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وكان أحد رعاة كنيسة القديس أندرو (St. Andrews Chapel) في مدينة سائفرورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح (Reformation Bible College). وهو مؤلف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك "كلنا لاهوتيون" و"أدهشي الألم".